ملخص البحث
الرحمـــــــــة
في القرآن الكريم

1 ــ معاني الرحمة: الرحمة في حقيقتها كلمة رقيقة تحمل معنى الرقة والعطف والشفقة والإحسان والرأفة والتلطف والحنان والقرابة أو القربة.

والرحمة ليست عارضا متوهما، بل هي إحساس وشعور في الوجدان، تشعر وتحس بهـــا في نفسك، تكاد تلمسها، بادية لعيناك تكاد تراها حقيقة وواقعا، فهذه المعرفة بها كمـــال الإنسان.

وتأمل وصف النبي ﷺ القلب بالرقة[1]: التي هي ضد القساوة والغلظـــة، ووصـــف الفؤاد: باللين الذي هو ضد اليبس والقسوة، فإذا اجتمع لين الفؤاد إلى رقة القلب، حصل من ذلك الرحمة والشفقة والإحسان ومعرفة الحق وقبوله، فإن اللـــين موجـــب القبـــول والفهم، والرقة تقتضي الرحمة والشفقة، وهذا هو العلم والرحمة، وبهما كمال الإنـــسان، وربنا وسع كل شيء رحمة وعلما[2].

فإذا لم يجد أحدنا هذا الشعور، فليعلم أنه محروم من الرحمة، وعليه أن يبادر إلى إيجاده في نفسه، ومن حوله بسلوكه وخلقه، كالرحمة بالأبناء، عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ الاَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ أَبْصَرَ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُقَبِّلُ حُسَيْنًا فَقَالَ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا فَعَلْتُ هَذَا بِوَاحِدٍ مِنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (مَنْ لا يَرْحَمُ لايُرْحَمُ).[3]

فغلظة القلب، والجفاء والقسوة في المعاملة، تعني عدم الإحساس بما يعنيـــه و يعانيـــه الآخرين، فلا يقدّر بذلك أحدا ولا يأبه لأحد، ولا يُعير إهتماما بأحد، ولا تهمه إلا نفسه، إنها تعني الأنانية والحسد، وهي دليل على أن هذا الصنف منزوع من قبله الرحمة، بل حُرم

1 ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (أتاكم أهل اليمن هم أرق قلوبا وألين أفئدة ...) رواه البخاري في كتاب المغازي برقم 4037. صحيح البخاري، الإمام البخاري، تحقيق الدكتور/ مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة 1987م.

2 ـ التبيان في أقسام القرآن، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، أبو عبد الله، ابن قيم الجوزية، 239/1، دار الفكر ـ بيروت،

3 ـ سنن أبي داود، أبي داود، كتاب الأدب برقم 4541.

خيرا كثيرا، وقد حُرم تلك النعمة وتلك السعادة، وذلك النور الذي ينير لـــه الطريـــق في حياته الجديدة، التي سيحياها من بعد ممات، ومن ضيق إلى سعة الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [1].

فليست الرحمة كلمات مجردة المعاني، عقيمة الثمار، اجتثت جذورها مـــن أصـــولها، فالرحمة إحساس وشعور، ينبغي أن يتصف بها العباد، فكما يقول ابن القيم: (وأما رحمـــة العباد فرقة في القلب، إذا وجدها الراحم من نفسه انعطف على المرحوم وأنـــثنى عليـــه، ورحمة الله للعباد جودٌ وفضل)[2]، ولن يجدها إلا من تخلَّق بخلق القرآن، واقتدى بالرسول ﷺ في خُلقه وسيرته العطرة، قال تعالى: (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُـــولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)[3]، فالرحمة هنا مرهونة بإقامة الصلاة وإتاء الزكاة وطاعة الرسول ﷺ ، وقسوة القلب تحجب صاحبها عن الرحمة، وقد جعل الرسول ﷺ لهذا المرض ـــ قـــسوة القلب ـــ علاجا لذلك، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلاً شَكَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَـــسْوَةَ قَلْبِـــهِ، فَقَالَ لَهُ: (إِنْ أَرَدْتَ تَلْيِينَ قَلْبِكَ فَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ، وَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ).

ومفهوم الرحمة مفهوم شامل، يشمل الأمور الروحية: من الـــسكينة وهـــي الثبـــات والطمأنينة، والحنان وهي العطف في القلب، والصلاة والرأفة والهدى والمحبة والروح، وهي تعني كذلك نعم الله وجوده وفضله على العباد: كالجنة، والإسلام، والإيمـــان، والنبـــوة، والقرآن، والمطر، والرزق، والنعمة والعافية، والنصر والمنَّة، وهي كذلك مغمورة بالمغفرة والسعة والمودة والعصمة، فتلك هي الرحمة بمفهومها الشامل والواسع، وبمعناها الحقيقي.

قال القفال رحمه الله: وأما الرحمة فإنها اسم جامع يدخل فيه ذلك المعنى ويدخل فيـــه الإفضال والإنعام وقد سمى الله تعالى المطر رحمة، فقال: (وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته)[4] لأنه إفضال من الله وإنعام[5]، ومن ذلك الإفـــضال والإنعـــام الـــشمس، والشفاعة يوم القيامة.

---

1 ـ الحديد (28).
2 ـ الكافية الشافية للإنتصار للفرقة الناجية، لابن القيم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، أبو عبد الله، 22/1 المكتب الإسلامي ـ بيروت، تحقيق/ زهير الشاويش، ط3، 1406هـ/ 1986م.
3 ـ النور (56).
4 ـ الأعراف (57).
5 ـ التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، 99/4.

فالرحمة هي السمة السائدة في أسماء الله تعالى وصفاته، فمن صفات الله : الرحمن الرحيم.. فمن رحمته الواسعة بخلقه، تشمل كل تشريع وتكليف أنزله على رسوله محمد ﷺ، والكون كله يشهد بهذه الرحمة في كل مجالاتها.

فإذا عرف العبد ربه وأنه المتصف بالرحمة العظيمة، وأن رحمته عمّت كل شيء وبرحمته حصلت له كل النعم، عرف أنه المستحق وحده للعبادة، فيفرده بالخوف والرجاء والتعظيم، ولا يشرك به أحد من خلقه، لأنه الرحمن الرحيم المتصف بالرحمة العظيمة، التي لا يماثلها رحمة أحد، فقد وسعت كل شيء، وعمت كل حي، فبرحمته وجدت المخلوقات، وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات، وبرحمته اندفع عنها كل نقمة، وبرحمته عرف عباده نفسه بصفاته وآلائه، وبين لهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح دينهم ودنياهم، بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

وأما البسملة فهي المتضمنة للإسمين العظيمين الرحمن الرحيم، قال بعض العلماء: (بسم الله الرحمن الرحيم) قَسَمٌ من ربنا أنزله عند رأس كل سورة، يُقسم لعباده إن هذا الذي وضعت لكم يا عبادي في هذه السورة حق، وإني أفي لكم بجميع ما ضمنت في هذه السورة من وعدي ولطفي وبري، و بسم الله الرحمن الرحيم مما أنزله الله تعالى في كتابنا، وعلى هذه الأمة خصوصا بعد سليمان عليه السلام، وقالوا كذلك: (إن بسم الله الرحمن الرحيم) تضمنت جميع الشرع لأنها تدل على الذات، وعلى الصفات وهذا صحيح.[1]

والآن لننظر إلى آثار رحمة الله، على العالمين وفي الكون وفي اليوم الآخر:

2 ــ آثار رحمة الله بالعالمين: وتتجلى في رحمة الله بالأنبياء والمرسلين والصالحين وبالناس وبالمؤمنين خاصة، وببني اسرائيل، وأتمّ سبحانه وتعالى رحمته بمحمد ﷺ، وبما أوحى إليه من القرآن.

فمن آثار رحمة الله بآدم عليه السلام أن زوده الله بتجربة الجنة وتاب عليه، بعد لجوئه إلى الدعاء هو وزوجه حواء بأن يغفر الله لهما ويرحمهما، ومن رحمة الله بنوح عليه السلام أن آتاه الله النبوة، ونجاه والذين آمنوا معه من الغرق، ثم تتدارك رحمة الله نوحا عليه السلام حين لجأ بالدعاء أن يرحمه الله حين سأله ما ليس له به علم، ورحمة الله بهود عليه

[1] ـ انظر الدر المنثور، عبد الرحمن بن كمال جلال الدين السيوطي، 26/1، دار الفكر ـ بيروت، 1413هـ/1993م.

السلام حين نجاه الله من العذاب هو ومن آمن معه، والنبوة رحمة من الله لـــصالح عليـــه السلام، ثم نجاه والذين آمنوا معه من العذاب، ومن رحمة الله بإبراهيم أن وهبه النبوة وممن اصطفاهم من ذريته، ونشاهد دعاء الملائكة بالرحمة لآل بيته، والله ينجي لوطا عليه السلام وبناته من عذاب الخزي رحمة منه

والله يرحم يوسف عليه السلام بأن عصمه فصرف عنه السوء والفاحـــشة، بعـــد أن رحمه وهو في الجب، ومن رحمة الله بيوسف عليه السلام أن مكَّـــن لـــــه في الأرض، و ينشاهده عليه السلام يتذكر رحمة الله به فلم يبخل بها على إخوته الذين ظلموه، وهـــذا يعقوب عليه السلام يرجو رحمة الله فينالها، بأن يجمعه ببنيه وأهله، والله تعالى ينجي شعيبا عليه السلام برحمة منه من عذاب يوم الظلة.

وثم تأتي بعثة موسى عليه السلام فمن رحمة الله بموسى أن وهب له أخاه وزيرا نبيا، ثم أنزل الله تعالى التوراة على موسى عليه السلام، فكانت رحمة لموسى وهي رحمـــة لـــبني اسرائيل إن أخذوا بها، ونراه عليه السلام يتوجه بالدعاء إلى الله أن يغفر لـــــه ولأخيـــه هارون، بعد أن تمرد بنو إسرائيل على أخيه وعبدوا العجل في غياب موسى.

وهاهو أيوب عليه السلام تأتيه رحمة الله بعد الإبتلاء، بأن يكشف عنه ما به من ضر، ويهبه أهله ومثلهم معهم، وذلك جزاء صبره على الإبتلاء وأدبه في الدعاء بالرحمة، ثم بيّن الله الصفات التي استحق بها زكريا وزوجه وابنه رحمة الله تعالى، ممثلـــة في إســـراعهم في الخيرات ويدعون الله رغبة في رضوانه ورهبة من عذابه غير متكبرين، ثم يهب الله الرحمـــة يحيي عليه السلام وهو الحنان منذ كان صبيا، ثم كانت النبوة رحمة بنبي الله عيسى عليـــه السلام، ومن رحمته به أن جعله برا بولدته وديعا لطيفا.

ثم يأتي خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ وتتمثل الرحمة في أن النبوة رحمـــة لمحمـــد ﷺ تعصمه من الضلال، ومن رحمة الله تعالى بمحمدﷺ أن أنزل عليه القرآن، وثبته في قلبه، و أن جعله هينا لين الجانب لأصحابه رضي الله عنهم، وانتصاره ﷺ على أعدائه رحمة مـــن الله تعالى، ومن رحمة الله به ﷺ أن وسع عليه في مظان الحرج، ومن رحمة الله تعـــالى بـــه كذلك ﷺ أن سامحه في امتناعه عن مارية، والعتاب كان رحمة به.

3 ــ رحمة الله بالصالحين: لقد عرض القرآن لقطات من حياة الصالحين، وعرض بعضا منهم للعبرة كدروس تربوية ومن هؤلاء أصحاب الكهف، الفتية الذين آمنوا بربهم، وكيف يرعى الله هذه النفوس المؤمنة، ويقيها الفتنة، ويشملها بالرحمة، ونراهم يسترجون رحمة الله، فتنالهم فنراهم يحسونها ظليلة فسيحة ممتدة، فإذا الكهف الضيق المظلم يتحول وفيه السعة والبحبوحة والانفساح، فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب وسيع، تنتشر فيه الرحمة، وتشملهم بالرفق واللين والرخاء.

وهذا الخضر يهبه الله نعمة عظيمة، وفضلا كبيرا، وهي الكرامات التي أظهرها الله على يديه، وعلمه علما خاصا به سبحانه، لا يعلَّم إلا بتوفيقه، وهو علم الغيوب، فتكون تصرفاته وفق رحمة الله، فجمع الله له بين العلم والرحمة، ويكشف الله للخضر عن حقيقة غلام بأنه لو عاش لأرهق والديه، فيرحم الله الأبوين الصالحين، فأراد الله ووجّه إرادة عبده الصالح إلى قتل هذا الغلام، ثم يرحم الله تعالى على يد هذا العبد الصالح الغلامين اليتيمين لأن أبوهما كان صالحا، فإن الله يحفظ بصلاح العبد ولده، وولد ولده، وعترته وعشيرته، وأهل دويرات حوله، فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم، فأراد الله أن يبلغا ويعقلا، و أن يدركا شدهما وقوهما، ثم يستخرجا حينئذ كَنْزَهُمَا، نعمة من الله.

ونرى ذي القرنين يشرع في بناء السد ومن رحمة الله أن مكّنه من بنائه وأعانه عليه، فقال: هذا التمكين رحمة من ربي، كل ذلك كان ثمرة الإخلاص والتقوى لله عز وجل.

4 ــ رحمة الله بالناس وبالمؤمنين خاصة: رحمة الله بالمؤمنين وبالناس جميعا، نلمسها من خلال الآيات البينات المبثوثة في كتابه، وفي الكون، التي توضح مدى سعة رحمته سبحانه وتعالى، فمن رحمة الله بالمؤمنين أنه لم يضيع إيمانهم وأجرهم، بعد أن حولت القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام، وكذلك رحمة الله بالكافرين الذين تابوا وكفوا عن قتال المؤمنين، وهي في الحقيقة ابتلاء لهم، أو بكف المؤمنين عن قتالهم، إذ لم يكلفهم مشقة مقاتلتهم، وبهذا تكون الآية منسوخة بآية السيف، كذلك المغفرة والرحمة، لمن جاهد في سبيل الله تعالى، ومن رحمته سبحانه أن نهى المؤمنين عن أكل الأموال بينهم بالباطل، إلا أن تكون تجارة عن تراض منهم، وهذا ليرحمهم من المقتلة الكبرى، هذا لأن الله رحيم

بأهل طاعته، فالعصمة من الضلال من رحمة الله بالمؤمنين، كذلك رحمة الله بالمهاجر الذي مات قبل وصوله إلى مبتغاه.

ومن رحمته سبحانه بعباده، أنه لم يعجل لهم العقوبة، حلمًا ورحمة واسعة منه، فلا يطيق الكافرون أن تنزع منهم رحمة الله في الدنيا، ولا يصبرون على ابتلائه فيها، وهو أيسر من عذاب الآخرة، كذلك تدرك رحمة الله الذين اهتدوا إلى الحق، ولأن الله كتب على نفسه الرحمة، ومن رحمته سبحانه بالعباد، أن خلق لهم الأنعام التي تحمل أثقالهم، وتحملهم إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلى بشق الأنفس، كذلك عدم تعجيل العقوبة من الله، حين يفرط الناس بالنعم، فهو سبحانه رؤوف رحيم بهم، ومن رحمته أن وفق المؤمنين للإيمان، ومن رحمة الله تعالى بعباده، أنه لم يملكهم خزائن رحمته، ولو ملكهم بعضهم لبخلوا خشية الإنفاق، ويتكرر فضل الله ورحمته بعدم المعاجلة بالعقوبة في الآيات بين السور الكريمة، ليؤكد ويلفت العقول والأنظار لهذه النعمة والرحمة الكبرى، وكذلك نلاحظ أن الهداية من رحمة الله على عباده، كل هذا تحدثت عنه الآيات التي سنعرضها في هذا المبحث بإذن الله تعالى.

ولأن الله تعالى رحيم بأوليائه وهم المؤمنون، فقد كرر هذا المبدأ ليظل راسخا في ضمير المؤمنين، فمن رحمته بهم التوبة والغفران على ما فَرَط منهم، ومجازاتهم على طاعتهم، كذلك يقرر الله سبحانه وتعالى بأن الرزق والمطر، أو الصحة أو غيرها رحمة مبسوطة منه عز وجل، وأن النبوة رحمة وعطية يتفضل الله بها على من يشاء من عباده، وحين يعرض القرآن هذه الرحمات، ينهى عن القنوط من رحمته، وختاما يوضح سبحانه بأن كف أيدي المؤمنين، ومنع التعذيب رحمة، ليَدخل في الإسلام من رغب فيه، ومن رحمته بالمؤمنين أن أكمل مودتهم، فسبحانه ما أوسع رحمته.

5 ــ رحمة الله ببني إسرائيل: تحدثنا عن رحمة الله ونعمه الجليلة ببني إسرائيل، عبر آيات بينات من القرآن الكريم موجهة إليهم، تبدأ بتذكيرهم بنعمة الله ورحمته عليهم، هذه النعم والرحمات التي يذكرهم بها، تتمثل في أن الله قد نجاهم من فرعون ونجاهم من الغرق وأغرق فرعون وقومه، فتح الله لهم بابا للتوبة، بعد أن عبدوا العجل، وأطاعوا السامري وعصوا موسى نبيهم، وأخاه هارون الذي كان معهم الذي حذرهم من عبادة العجل

الذي فتنوا به، وبأن تجاوز عن خطيئاتهم عندما راجعوا طاعة ربهم في التوراة، بعد أن رفع فوقهم الطور، هذه التوراة التي جاءتهم لتنجيهم من الضلالة وعمى الحيرة.

ثم ذكرهم بعد ذلك أن من تاب منهم بعد الإساءة والظلم، أنه يقبل توبته، ثم بين لهم أن الرحمة لمن يخاف الله ويخشى عقابه، وقد أدركت إخوة يوسف من قبل.

ثم يعد الله بني إسرائيل مرة أخرى بالرحمة بعد النقمة، إن هم دخلوا الإسلام، ثم ذكرهم بأن التوراة كانت رحمة لمن آمن من بني إسرائيل، فالتوراة كانت قبل أن يحرفها يهود إماما ورحمة، بها يهتدون، وبها يأتمون، فلا يضلون عن الحق، ((وجعل التوراة كالقرآن (ذكرا للمتقين) تذكرهم بالله، وتبقى لهم ذكرا في الناس، وماذا كان بنو اسرائيل قبل التوراة؟ كانوا أذلاء تحت سياط فرعون، يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم، ويستذلهم بالسخرية والإيذاء))[1]، زيادة على ذلك فيها بشارة بخاتم النبيين وسيد المرسلين محمد ﷺ، الذي بمجيئه يهتدون إلى الحق والصواب، ويعودون إلى ربهم بدخولهم الإسلام.

ومن رحمة الله ببني إسرائيل ــ كذلك ــ أن أبرز لهم حادثة ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام، ليقودهم إلى معرفة الله وعبادته، وهذه رحمة عظيمة بهم، فهل قدروا الله حق قدره؟ وهل سيقدرون هذه النعمة والرحمة اليوم أو غدا؟ لا زال الباب مفتوحا لهم ليعودوا إلى حظيرة الإسلام، وإلى كنف الرحمان، ما لم تطلع الشمس من مغربها، فهذه نعم يذكرهم بها أرحم الراحمين، فمتى تلين هذه القلوب المتحجرة؟ وإلى متى هم غارقون في غضب الله وسخطه؟ وإلى متى يعيثون في الأرض الفساد، وهم ينسجون خيوط المكر للمسلمين، ويوقدون نار الفتن والحروب في العالم؟ ألم يأن لهم أن تلين قلوبهم إلى ذكر الله، وقد قست هذه القلوب بسبب نقضهم الميثاق، فطردوا من رحمة الله، أما آن لهم أن يدخلوا في دين الإسلام؟ أم ينتظرون قذائف الحق تقرع قلوبهم من وراء الحصون المحصنة، التي لم تلن بطيور السلوى ولا بالمعجزات ولا بالقرآن، ولا بهدي نبي الرحمة محمد ﷺ!.

6 ــ محمد ﷺ رحمة للعالمين: إن الله سبحانه وتعالى إنما يرسل رسله رحمة بالعباد، فهو غنيٌّ عنهم، وعن إيمانهم به وعبادتهم له، وإذا أحسنوا فإنما يحسنون لأنفسهم في الدنيا والآخرة، وختم الله رسالته بالنبي الخاتم محمد ﷺ نبي الرحمة والهدى، ليخرج الناس من

1 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 4 / 2384.

الظلمات إلى النور بإذن ربهم، وكان الهدف من إرساله ﷺ أنه رحمة للعالمين، وكان عليه الصلاة والسلام أرحم الناس، جاء في الحديث: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: (مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ: كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَرْضِعًا لَهُ فِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ، فَكَانَ يَنْطَلِقُ وَنَحْنُ مَعَهُ، فَيَدْخُلُ الْبَيْتَ وَإِنَّهُ لَيُدَّخَنُ وَكَانَ ظِئْرُهُ قَيْنًا[1]، فَيَأْخُذُهُ فَيُقَبِّلُهُ ثُمَّ يَرْجِعُ، قَالَ عَمْرٌو: (فَلَمَّا تُوُفِّيَ إِبْرَاهِيمُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ابْنِي وَإِنَّهُ مَاتَ فِي الثَّدْيِ، وَإِنَّ لَهُ لَظِئْرَيْنِ تُكَمِّلانِ رَضَاعَهُ فِي الْجَنَّةِ)[2].

أرسله الله بهذا القرآن المعجز، هذا الكتاب المتضمن للعقيدة وللشريعة، المطلوب اتباعها والتقوى فيها، رجاء أن ينال الناس ــ حين يتبعونها ــ رحمة الله في الدنيا والآخرة، هذا الكتاب هدى ورحمة للناس، وهو شفاء من الهوى ونزغات الشياطين، والاتجاهات المختلفة في الشعور والتفكير، ومن علل النظريات الاجتماعية الهدامة، هذا الكتاب الذي هو روحا من أمر الله تعالى، يحي به أمة، ويخرجها لتُخْرج من شاء، من عبادة العبادة إلى عبادة رب العباد.

ومن رحمة الله بمحمد ﷺ أن ليَّن قلبه، فلم يكن غليظ القلب ولا فظا، فكان ﷺ مثلا لهذه الرحمة المهداة منه سبحانه وتعالى لخلقه، لنشاهد ونلاحظ هذه الرحمة منه ﷺ في حياته وانعكاس آثارها على العباد، ولولا بعثة محمد ﷺ وإنزال القرآن لاتبع الناس الشيطان وكفروا بالله، وليعلم الذين يؤذون الرسول ﷺ بأقوالهم أو أفعالهم، أنه ﷺ إنما بعث رحمة لهم، فالذين أمنوا به هم الذين يرحموا لأنه ﷺ كان سببا لإيمانهم، لقد جاءهم رسول عظيم القدر، من جنسكهم عربي قرشي، يبلغكم رسالة الله، و يشق عليه عنتهم، وهو المشقة ولقاء المكروه، حريص على هدايتهم، رؤوف بالمؤمنين رحيم بالمذنبين، شديد الشفقة والرحمة عليهم، وأن الله رحم العالمين بإرسال سيدنا محمد ﷺ لأنه جاءهم بالسعادة الكبرى، والنجاة من الشقاوة العظمى، ونالوا على يديه الخيرات الكثيرة في الآخرة والأولى، وعلمهم بعد الجهالة، وهداهم بعد الضلالة، ولقد قصّ الله على نبيه محمد ﷺ قصص الأولين، فهي رحمة الله بقومه هؤلاء، أن قصَّ عليه تلك الأنباء الدالة على صدقه ﷺ، فيما يدعوهم إليه، لينذر هؤلاء القوم الذين لم يأتهم نذير من قبله، فقد كانت

1 ـ مرضعة غيرها، وهي زوجة الحداد.
2 ـ صحيح مسلم، مسلم، كتاب الفضائل 4280.

الرسالات في بني إسرائيل من حولهم، ولم يرسل إليهم رسول منذ أمد طويل، منذ أبيهم إسماعيل: لعلهم يتذكرون.

فهي رحمة الله بالقوم، وهي حجته كذلك عليهم، كي لا يعتذروا بأنهم أُخِذوا على غرة، وأنهم لم ينذروا قبل أخذهم بالعذاب، وما هم فيه من جاهلية وشرك ومعصية يستوجب العذاب، فأراد الله أن يقطع حجتهم، وأن يعذر إليهم، وأن يقفهم أمام أنفسهم، مجردين من كل عائق يعوقهم عن الإيمان.

7 ــ والقرآن رحمة: وتتجلى الرحمة في القرآن الكريم في أشمل صورها، حيث يسبغ الله على من عمل به واسع رحمته، القرآن الكريم أنزله الله سبحانه وتعالى رحمة للبشرية، فيجب على الإنسان أن يدرك هذا إدراكا كاملا، والقرآن أنزله الغفور الذي يغفر لمن تاب، فترك ما هو عليه من كل ما هو مخالف لشرعه، أو أي عمل يؤدي إلى غضبه وسخطه، ويجب أن يعلم أنه العزيز المنتقم ممن يخالفه، ويجب أن يعلم أن الصفة الغالبة في هذا التنزيل ، صفة الرحمة، وما من شك أن تنزيل هذا الكتاب، جاء رحمة للعالمين، فهو رحيم إذْ أنزل إليهم هذا القرآن، لأنه هدى لما هم فيه من الضلال، مفصلا على علم مبين فيه الحق والباطل، فهو بصائر للناس يعمق لهم الهداية بالإنارة، كما تكشف البصائر لأصحابها عن حقائق الأمور، وهو موعظة وشفاء، لإحياء القلوب وشفائها من الخرافة والشك والزيغ والقلق، الذي يسيطر عليها، فهو يصدق ما في الكتب التي أنزلت من قبله، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل، وأخيراً فهو تبيانا لكل شيء، فبه يصلح العباد شؤون حياتهم، وينالوا رضا ربهم، ومغفرته ورحمته يوم يلقونه.

إن المؤمنين هم وحدهم الذين يكون القرآن هدى ورحمة لهم، يهتدون بهديه، ويمشون بنوره، يتذوقون طعم الإيمان في وجدانهم، كل ذلك برحمته، فتكون فرحتهم وسعادتهم به، يقول سيد قطب: (فالذين يؤمنون هم الذين يجدون مس هذه الرحمة في نفوسهم، وهم الذين يتذكرون فضل الله، وعظيم منته على البشرية بهذا التنزيل، ويستشعرون كرمه، وهو يدعوهم إلى حضرته وإلى مائدته، وهو العلي الكبير، وهم الذين ينفعهم هذا القرآن، لأنه

يحيا في قلوبهم، ويفتح لهم عن كنوزه ويمنحهم ذخائره، ويشرق في أرواحهم بالمعرفة والنور)[1].

والشريعة كلها رحمة، ومبنية على مصالح العباد في المعاش والمعاد، يقول ابن القيم:

فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم، ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله ﷺ أتم دلالة وأصدقها، وهي نوره الذي به أبصر المبصرون، وهداه الذي به اهتدى المهتدون، وشفاؤه التام الذي به دواء كل عليل، وطريقه المستقيم الذي من استقام عليه فقد استقام على سواء السبيل، فهي قرة العيون وحياة القلوب، ولذة الأرواح، فهي بها الحياة والغذاء والدواء والنور والشفاء، والعصمة وكل خير في الوجود، فإنما هو مستفاد منها وحاصل بها، وكل نقص في الوجود فسببه من إضاعتها، ولولا رسوم قد بقيت لخربت الدنيا، وطوي العالم وهي العصمة للناس، وقوام العالم وبها يمسك الله السموات والأرض أن تزول،ا فإذا أراد الله سبحانه وتعالى خراب الدنيا وطي العالم رفع إليه ما بقى من رسومها، فالشريعة التي بعث الله بها رسوله هي عمود العالم، وقطب الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة[2].

والرحمة في التشريع ممثلة في التوسعة والتيسير على هذه الأمة، وبرفع الإثم الحرج، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، قال تعالى: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[3].

1 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 4 / 2746 ـ 2747.
2 ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، 3 / 3، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل ـ بيروت، 1393هـ / 1973م.
3 ـ الأعراف (157).

8 ــ مستجلبات الرحمة: على المؤمن أن يحرص كل الحرص أن تشمله رحمة الله تعالى، ولكن كيف يستجلب هذه الرحمة؟.

وحسب توجيهات وهدي القرآن نجد أن استجلاب رحمة الله ممثلة في الاستغفار والتوبة و الإيمان والعمل الصالح وتقوى الله عز وجل والدعاء.

أ ــ **الاستغفار**: فالإستغفار عنصر مهم لجلب رحمة الله تعالى، نلاحظ ذلك عند تأملنا للآيات في القرآن الكريم، بداية يدعو الله قريش أن تستغفر الله من كبرياء الجاهلية، التي ابتدعوها في مناسك الحج، ليردهم عن كل مايخالف تعاليم الإسلام.

ويفتح الإستغفار بابا واسعا للرحمة لمن ظلم نفسه، أو عمل سوءا، كما يفتحه للنصارى، ويظل مفتوحا إلى قيام الساعة، لعلهم يعودوا إلى حظيرة الإسلام، ويتركوا معتقداتهم الفاسدة، كذلك يجعل القرآن الاستغفار ضمانا لقبول الصدقات.

ويعطينا القرآن نموذجا حيا من الأمم السابقة، تتمثل في دعوة شعيب عليه السلام قومه إلى الإستغفار مما هم عليهم من فساد إقتصادي لينالوا رحمة الله، ويوجهنا القرآن إلى إختيار الأوقات المحببة للإستغفار، وليرسخ ذلك المفهوم ويدرجه في شكل قصة ليعقوب عليه السلام، وهذا صالح عليه السلام يرغب قومه الاستغفار بعدم استعجالهم العذاب، حتى ينالوا رحمة الله تعالى، ويضرب لنا القرآن نموذجا وأسوة، ممثلا في استغفار موسى عليه السلام، فتناله رحمة الله، فمن رحمة الله بالمستغفرين أن يتوب عليهم.

ب ــ **باب التوبة:** باب التوبة باب مفتوح لاستجلاب رحمة الله تعالى، يقول الطبري في تعريف التوبة: **أما التوبة** فأصلها الأوبة من مكروه إلى محبوبٍ، فتوبة العبد إلى ربه أوبته مما يكرهه الله منه، بالندم عليه والإقلاع عنه، والعزم على ترك العود فيه، وتوبة الرب على عبده عوده عليه بالعفو له عن جرمه، والصفح له عن عقوبة ذنبه، مغفرة له منه وتفضلاً عليه[1].

فالتوبة باب من أبواب الرحمة، فالتائب تدركه رحمة الله تعالى، بل إن الله لأشد فرحا من توبة عبده إليه، ففي هذا المبحث سنستعرض الآيات التي تبين أن التوبة يمكن أن يستجلب بها العبد رحمة ربه عز وجل.

1 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، 1/ 555.

ج ــ من الأعمال المستجلبة لرحمة الله: وهناك كثيرٌ من الأعمال المستجلبة لرحمة الله تعالى، منها الهجرة في سبيل الله، مع الرجاء في رحمة الله، ثم يذكر المشركين أن الذين يعبدونهم هم أنفسهم يبتغون القرب إلى الله، ويرجون رحمته، ثم يعطي الله نموذجا حيا للذين يرجون رحمة الله، وهم الذين يحيون ليلهم قائمين لله، يحذرون الآخرة، وينال الرحمة من اتقى وأطاع الله ورسوله، ويرغب الله في الرحمة بالعبادة والخوف من عذابه، بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وأخذ العبرة بما جرى للأمم السابقة، ومنها الكف عن محاربة المسلمين والدخول في الإسلام، ويضاعف الله الرحمة لمن لم يفرق بين الرسل، وهو مؤمن برسول الله ﷺ، وكذلك الموت في سبيل الله، وتنال الرحمة بالزواج، وينال الرحمة من أصلح واتقى في تمسكه بالعدل بين الناس أو بين النساء، ومن تحلى بخلق والعفو والصفح ، ورحمة الله قريب من المطيعين، ينالها من اتقى.

كل هذه الأعمال مستجلبة لرحمة الله تعالى، مصحوبة بالرجاء في نيل رحمة الله، نسأل الله أن يوفقنا للأخذ بها والعمل بها.

د ــ الدعاء: و يعد الدعاء مصدر من مصادر استجلاب رحمة الله تعالى، ولقد فتح الله هذا الباب الواسع لعباده، المنيبين المخبتين إليه، ويظل مفتوحا للتائبين والمستغفرين للدخول في رحمة الله تعالى، ويبقى العبد محتاجا إلى رحمة الله تحوطه وتحفه، للتتدارك تقصيره وعجزه جراء التكاليف التي إنيط بها، والدعاء وسيلة لتدارك هذا العجز، ومن هنا يعلمنا الله تعالى، كيفية الدعاء بأدب، عبر سلسلة من التوجيهات التربوية في النص القرآني، فتارة تأتي بصيغة نداء ينبعث من صدور المؤمنين، وهم يواجهون معترك الحياة، ويتحملون عبء التكاليف الربانية، بأن يتغمدهم الله برحمته، ليتجاوز عن تقصيرهم، وأخطائهم، وترى الراسخون في العلم يدركون هذا المعنى، وهم يعرفون أنهم لا يقدرون على شيء إلا برحمة الله وفضله، ثم يأمر رسوله ﷺ أن يُعلِّم الأمة الاستغفار والاسترحام بطريق الثناء والدعاء.

ولا ينسى المؤمن وهو يرجو رحمة ربه، أن لا يحرم والديه من هذا الدعاء، وأن يدعو الله بأن يرحمهما كما ربيانه وهو صغير، ثم يذكّر المؤمنين بأن لا ينسوا إخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان، بأن يدعو لهم بالرحمة، وهو اعترافا بفضلهم عليهم، وهو تعبيرا عن صدق إيمانهم، فهذه صفات المؤمن الصادق، ثم بيّن تعالى صورة للفائزين بجناته، وهم

سادات الناس وفضلائهم، بخضوعهم وخشوعهم وانكسارهم لربهم، وهم يدعونه بأن يرحمهم.

ثم يعطي الله نموذجا حيا كقدوة لنا، وهم حملة العرش المقربون، لا ينسون إخوانهم المؤمنين بأن يدعو لهم بالرحمة، بخير ما يدعو به مؤمن لمؤمن، وهم يعلموننا أدب الدعاء، إنهم الملائكة الأطهار، وهاهم الأنبياء والمرسلين والصالحين، لا يستغنون عن الدعاء بالرحمة، فهم في أمس الحاجة إلى رحمة الله تحفهم في مسيرة حياتهم، بل هاهو رسول الله ﷺ وهو قدوتنا وأسوتنا، يعلمنا كيف ندعو بالرحمة في جميع مجالات حياتنا وآخرتنا، فكيف نستغني نحن الفقراء إلى رحمة الله عن هذا المبدأ؟ بل كيف نغفل عن هذا التوجيه القرآني الفريد، ونحن المقصرون في حق الله تعالى؟.

والآن تعالوا بنا ننظر إلى رحمة الله في الأرض:

9 ــ آثار رحمة الله في الأرض: من آثار رحمة الله في الأرض، الشمس وما لها من فوائد جمّة على الأرض ومن عليها، والرياح والسحب والأمطار وما تذروه وما تحمله وما تنزله على الأرض، وما يجنيه الإنسان والحيوان من منافع كثيرة، وفي إحياء الأرض بعد موتها، وما تسببه من كسب للرزق، وهذه البحار التي تتخلل الخلجان والمحيطات، وما فيها من فوائد تعود على الأرض والإنسان والكائنات الحية على السواء، واختلاف الليل والنهار، فالشمس رحمة والرياح رحمة، والسحب رحمة، والأمطار رحمة، والبحار رحمة، والليل والنهار رحمة، كل ذلك من آثار رحمته سبحانه، ألفت الخالق عز وجل أنظارنا لنتعرف عليها، ونتجاوب معها ونتأملها بتدبر، لنكتشف منافعها ولنسخرها كما هي مسخرة لنا، والكشف عن قوانينها وفق سنن الكون، في الاستعانة على عبادة الله وطاعته، تلك الآثار مرتبطة ببعضها في تناسق محكم، وترابط عجيب، من رب غفور رحيم.

10 ــ الرحمة جزاء وابتلاء: من رحمة الله تعالى النبوة، فالنبوة رحمة فهي جزاء ومنحة وفضل ومنّة منه عز وجل، يختص بها من شاء من عباده، وكذلك الصلاة والرحمة من الله جزاء للمسترجعين، الذين نزل بهم بلاء أو مصيبة، و الرحمة المغفرة جزاء للمهاجرين وللمجاهدين في سبيل الله، وقد فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين غير أهل الأعذار في الجزاء بالمغفرة والرحمة، وإنه وإن كان المجاهدون قد نالوا

هذا الجزاء بفضل تميزهم على القاعدين، بمباشرتهم الحركة والمشي، زيادة على النيّة، فهي جزاء كذلك للمحسنين لأصحاب الأعذار من الشيوخ والنساء والمسنين والمرضى، والفقراء الذين لا يجدون نفقة للجهاد.

هل تكون الرحمة جزاء؟، وهل تكون ابتلاء؟، تعالوا لنجد الجواب:

أ ــ والرحمة جزاء: لمن دخل الإسلام وأطاع الله وأناب، وهي جزاء لمن يتقرب إلى الله بالأعمال الصالحة، ولمن يلتمس مرضاته كما في الحديث: عَنْ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَلْتَمِسُ مَرْضَاةَ اللَّهِ ولا يَزَالُ بِذَلِكَ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِجِبْرِيلَ إِنَّ فُلانًا عَبْدِي يَلْتَمِسُ أَنْ يُرْضِيَنِي أَلا وَإِنَّ رَحْمَتِي عَلَيْهِ فَيَقُولُ جِبْرِيلُ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى فلانٍ وَيَقُولُهَا حَمَلَةُ الْعَرْشِ وَيَقُولُهَا مَنْ حَوْلَهُمْ حَتَّى يَقُولَهَا أَهْلُ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ ثُمَّ تَهْبِطُ لَهُ إِلَى الأَرْضِ)[1]، وهي جزاء لأهل الرشاد، وعندما يوفق العبد للإيمان فتلك من أعظم الرحمة التي يمن الله بها على عباده، وغاية الرحمة مرضاته سبحانه ونيل الجنة، فالجنة جزاء لمن اعتصم به وتقرب إليه بالأعمال الصالحة، وهي جزاء لمن هداه للإسلام، ومات عليه، وهي في الأخير منحة يمنحها الله من شاء من عباده المؤمنين، الذين كانوا يرجون رحمته ويخافون عذابه.

ب ــ والرحمة ابتلاء: ومن الابتلاء بالرحمة الابتلاء بالرخاء بعد الشدة، والله يبتلي عباده، لينظر هل يشكر الناس، ويقدّروا خالقهم حق قدره! أم تعود عليهم بالنقمة والبلاء؟، ولبيان طبيعة هذا الإنسان المتجرد من الإيمان، كيف يكون حاله، مع متقلبات الزمن وعواصف الأيام.

ويبتلي الله عباده بكشف البلاء عنهم، فبدلا من أن يعودوا ويتضرعوا إلى خالقهم يستمروا ويتمادوا في العناد والكفر!، ثم بعد كشف الضر يبتلي الله عباده بالسعة والرخاء والصحة، فإذا هم يشركون به بدلا من شكر نعمائه عليهم. ثم يبتلي الله سبحانه وتعالى عباده بالنعم ثم ينزعها منهم، فنرى هذا الإنسان الجاحد قنوطا من رحمة الله، إلا المؤمنون الصابرين المحسنين الذين يفعلون الخير في كل الظروف.

فهذه النعم وهذه الرحمات التي لا تحصى ولا تعد، يبتلي الله بها عباده ليعلم الصادقين ويبلو أخبارهم، والابتلاء بالضراء في عمومه رحمة كما في الحديث:

1 ـ مسند الإمام أحمد، أحمد، برقم: 21367 ـ باقي مسند الأنصار.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺعَنِ الطَّاعُونِ فَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ: (عَذَابٌ يَبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَأَنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ يَقَعُ الطَّاعُونُ فَيَمْكُثُ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا يَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ يُصِيبُهُ إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ إِلاَّ كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ شَهِيدٍ)[1].

هذه كلها رحمة واحدة يرحم الله بها عباده في الدنيا، ويتراحم بها الخلق، والآن تعالوا بنا ننظر إلى رحمة الله الباقية، وهي تسع وتسعون رحمة أبقاها الله لليوم الآخر:

11 ــ الرحمة في اليوم الآخر: من رحمة الله تعالى أن كتب على نفسه الرحمة تفضلا منه وإحسانا، وجعل يومًا يحشر فيه الناس جميعا، يوم لا شك فيه، ونلاحظ اسم الرحمن يغلب على أسمائه في هذا اليوم، جاء ذلك في عدة آيات منها قوله تعالى: (رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً)[2]، قال ابن كثير: يخبر تعالى ــ في هذا اليوم ــ عن عظمته وجلاله وأنه رب السماوات والأرض، وما فيهما وما بينهما، وأنه الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء[3]، ومنها قوله تعالى: (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً)[4]، قال أبو السعود:

أي نجمعهم إلى الرحمن إلى ربهم الذي يغمرهم برحمته الواسعة وافدين عليه كما يفد الوفود على الملوك منتظرين لكرامتهم وإنعامهم[5]، وقال السمرقندي: ويقال: إلى الرحمن يعني إلى الرحمة وهي الجنة، ويقال: إلى الرحمن يعني إلى دار الرحمن[6].

أ ــ رحمة الله يوم الفصل: ومن أعظم أسباب الرحمة أن حذّر من هذا اليوم العظيم، فلولا خوف العذاب والحساب فيه، لتمادى الناس في ظلمهم ولبغى بعضهم على بعض، فالذي يصرف عنه العذاب في هذا اليوم فقد رحمه الله تعالى، وفي هذا اليوم تنال الرحمة أصحاب الأعراف، وفي هذا اليوم تشمل الرحمة من تاب وعمل عملا صالح في الدنيا، فيبدل الله سيئاته حسنات، فالله واسع المغفرة كثير الرحمة في ذلك اليوم، فمن رحمة الله تعالى في هذا اليوم كذلك أن يُؤْذن للأنبياء والملائكة بأن يشفعوا في المؤمنين، حتى لا

1 ـ صحيح البخاري، البخاري، برقم: 3215، آحاديث الأنبياء.
2 ـ النبأ (27 ـ 28).
3 ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير 4 /466.
4 ـ مريم (85).
5 ـ انظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن اكريم، أبو السعود، 281/5.
6 ـ تفسير السمرقندي، السمرقندي، 387/2.

يطول عليهم الحساب، و في هذا اليوم يرحم الله المؤمنين بأن يفصل بينهم وبين المنافقين، بأن يُضرب بينهما بباب باطنه في الرحمة من جهة المؤمنين، وظاهره من قبله العذاب من جهة المنافقين، والجزاء من جنس العمل، والذي يفصل بين العباد إنه الرحمن ذو العظمة والجلال الذي وسعت رحمته كل شيء ، وفي هذا اليوم يُخرج الله كتابا من فوق العرش بأن رحمته سبحانه سبقت غضبه، في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي)[1]، ليطمع الخلق في رحمته.

ثم إن الله سبحانه يرحم في هذا اليوم خلقا كثيرا ممن دخلوا النار، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق أخرج كتابا من تحت العرش أن رحمتي سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة أو قبضتين فيخرج من النار خلقا لم يعملوا خيرا مكتوب بين أعينهم عتقاء الله)[2] ، في يوم الفصل يكشف الله سبحانه عن التسع والتسعين رحمة الباقية ليرحم بها عباده، عن عطاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : (ثم إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم،فيها يتعاطفون وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخّرَ تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة)[3].

فلقد علم الله من بني آدم ضعفهم وعجزهم وقصورهم على أن تفي أعمالهم بحق الجنة، ولا بحق نعمة واحدة من نعمه عليهم في الدنيا، فكتب على نفسه الرحمة، وقبل منهم جهد المقل القاصر الضعيف، وكتب لهم به الجنة، فضلا منه ورحمة فلم يستحقوها بعملهم ولكن بهذه الرحمة[4].

وفي الحديث: (...حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار، أَمَرَ الْمَلاَئِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ لاَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئاً، مِمَّنْ أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَرْحَمَهُ، مِمَّنْ يَقُولُ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ، يَعْرِفُونَهُمْ بِأَثَرِ السُّجُودِ، تَأْكُلُ النَّارُ مِنِ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ أَثَرَ السُّجُودِ، حَرَّمَ اللهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ

1 ـ صحيح مسلم، مسلم، برقم: 4939.
2 ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير 137/2.
3 ـ صحيح ابن حبان، ابن حبان، 15/14.
4 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 3 /1291.

السُّجُودِ، فَيُخْرَجُونَ مِنَ النَّارِ وَقَدِ امْتَحَشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ مِنْهُ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفْرُغُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ[1].

ب ــ **رحمة الله في دار الخلد (الجنة)**: جعل الله تعالى الجنة رحمته يوم القيامة، يرحم بها من شاء من عباده، ففي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ : مَا لِي لاَ يَدْخُلُنِي إِلاَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ : إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ فَلا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ، فَتَقُولُ قَطْ قَطْ فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ، وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلاَ يَظْلِمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا[2].

ثم تأتي البشارة من الله تعالى لعباده في الدنيا، بأن الذين آمنوا واستقاموا لهم الجنّة، لهم فيها ما تشتهيه أنفسهم، ولهم كل ما يطلبونه أنزلهم إياها الرحيم بمغفرته ورحمته، بل لا يستطيعون تصور ذلك النعيم، كما في الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ذُخْراً، بَلْهَ مَا أَطْلَعَكُمُ اللّهُ عَلَيهِ»[3]، ثُمَّ قَرَأَ: (فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)[4].

والجنّة يُدخلها الله من شاء من عباده المؤمنين، الذين كانوا يطلبون عونه على طاعته، وأن يوفقهم إلى الهدى، ثم يعطي الله علامة يتميز بها الذين وجبت لهم الجنة بشارة لهم، قبل دخولها، ثم يصف الله نعيم الجنّة وتنعّم أهلها السعداء، وهم مشغولون يهْنئون بما قدموا في الدنيا من تقوى وعمل صالح، ثم يزيدهم نعيما إلى نعيمهم بأن يلحق بهم ذريتهم المؤمنين، استحقوا كل هذا لأنهم كانوا عبيدا لله يتضرعون إليه، فاستجاب لهم، لأنه المحسن المتفضل على عباده بالمغفرة وبالرحمة.

1 ـ صحيح مسلم، مسلم، 16/3، كتاب الإيمان، برقم: 405.
2 ـ صحيح البخاري، البخاري، برقم: 4472 ـ كتاب تفسير القرآن.
3 ـ صحيح مسلم، مسلم، 139/17، كتاب الجنة وصفها ونعيمها وأهلها، برقم: 7083.
4 ـ السجدة (17).

ملخص البحث ـــــــ